إدارة الأَزمات ومنهجه ﷺ مع المشركين قبل البعثة

Crisis Management and the Prophet's Approach to Dealing with Polytheists Before the Mission

الطالب

باسم سعيد محمد

The student

Bassem Saeed Muhammed

الاستنتاجات:

١. أظهرت مشاركة النبي ﷺ في حرب الفجار إلمامه المبكر بأحوال العرب في الحروب، وإدراكه لأساليب القتال والتحالفات، مع التزامه بالأخلاق وحرصه على تجنب سفك الدماء، ممَّا شكّل مرحلة تمهيدية لتحمّله المسؤولية واكتسابه خبرات القيادة، كما عكست ثقته بين قومه واطّلاعه على طرق اتخاذ القرار في أوقات الأزمات.

٢. لم يكن حلف الفضول مجرد اتفاق أخلاقي، بل مثّل استجابة جماعية لأزمة العدالة في مكة، وشارك فيه النبي ﷺ قبل البعثة، ممَّا يعكس وعيه المبكر بأهمية الحلول الجماعية ودوره الفاعل في معالجة الأوضاع المجتمعية، وهو منهج استمر عليه بعد النبوة.

٣. مثّلت رعاية النبي ﷺ للغنم تجربة مبكرة غرسَت فيه الصبر على المشقة وتحمّل التحديات، كما أبرز موقفه في أزمة الحجر الأسود حكمته وبعد نظره في إدارة الأزمات، إذ قدّم حلاً عادلًا شارك فيه الجميع، فجنّب قريشًا النزاع وسفك الدماء، مما رسّخ مكانته بينهم، وظهر من خلاله منهجه القائم على العدل، والمشاركة، ومنع التصعيد.

Conclusions:

· The Prophet's participation in the Battle of al - Fijār reflected his early awareness of Arab warfare dynamics, including combat strategies and tribal alliances. Despite his limited role, his ethical stance and avoidance of bloodshed highlighted his moral commitment. This experience contributed to the gradual development of his leadership skills, demonstrated the trust his people had in him, and allowed him to observe decision - making processes during times of crisis.

· The Ḥilf al - Fuḍūl was not merely a moral pact, but a collective response to a crisis of justice and accountability in Mecca. The Prophet's participation in this alliance before his prophethood highlights his early social engagement, leadership awareness, and belief in cooperative solutions to crises—an approach he would continue throughout his prophetic mission.

· The Prophet's experience as a shepherd was not merely a source of income, but a formative stage that instilled patience and endurance. His role in resolving the Black Stone crisis revealed his foresight and wisdom in crisis management, as he proposed a fair and inclusive solution that prevented conflict and bloodshed. This strengthened his standing among the people and reflected his enduring approach based on justice, shared responsibility, and de - escalation.

إدارة الأزمات ومنهجه ﷺ مع المشركين قبل البعثة

المطلب الأول: مشاركته ﷺ في إدارة أزمة حرب الفجَّار وحلف الفضول

أولًا: مشاركته ﷺ في إدارة أزمة حرب الفجَّار.

عندما بلغ عمر النَّبيّ محمد ﷺ عشرون عامًا، اندلعت حرب الفجار في سوق عكاظ(١)، بين قريش ومعهم كنانة، وبين قيس عيلان(٢).

١. سبب الحرب:

إنَّ سبب وقوع الحرب هو عروة الرَّحَّال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن(٣)، أجاز لطيمة(٤)، للنعمان بن المنذر ملك الحيرة(٥).

فإنَّ النَّعمان كان يرسل تلك اللطيمة في كل عام، كي تباع في سوق عكاظ، ويشتري له بثمن ذلك بضاعة من الطَّائف، وكان يرسلها تحت حماية رجل من أشراف العرب. وعندما جهَّز اللطيمة، كان بحضرته مجموعة من الأعراب، ومن بينهم البَرَّاض من بني كنانة(٦)، وعُروة الرحَّال من هوازن، وسمِّي بالرَّحال لكثرة رحلته إلى الملوك، فقال النُّعمان من يجيز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟ فقال البَرَّاض: (أنا أُجيزها على بني كنانة)، أي أنَّه يضمن حمايتها في ديار

(١) سوق عكاظ: هي سوق بمثابة المعرض العربي الشَّامل في العصر الجاهلي، وتعد أَكبر سوق تجاريَّة لأهل الجزيرة العربيَّة عامة، كانت تصل إليها البضائع والصناعات من مختلف البلدان، حيث كانت تُجلب إليها الخمور من هجر والعراق وغزة والبصرة، بينما يأتي السَّمن من بوادي نجد والحجاز، كما كانت تستورد من اليمن المواشي والجلود، إلى جانب العطور الفاخرة وأدوات التجميل والأسلحة، وكان في هذه السوق، التُّجار يعرضون الحرير والملابس الفاخرة والأحذية وأدوات القمار، فضلًا عن السلع النفيسة القادمة من معادن الجزيرة، كما كانت تحتوي على زيوت الشام وزبيبها وأسلحتها، التي كانت قريش تنقلها في قوافلها إلى مكة، ينظر: أسواق العرب في الجاهليَّة والإسلام، سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني (ت ١٤١٧هـ)، ط٢ (دار الفكر - دمشق - سوريا) ص ٢٧٨.

(٢) ينظر: السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٨٤/١.

(٣) ينظر: السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٨٤/١

(٤) اللطيمة: الجمال التي تحمل الطيب والمسك وأشباهها للتجارة، السّيرة النبويَّة لابن هشام، ١٨٤/١.

(٥) النعمان بن المنذر ملك الحيرة: هو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس ابن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر، والحيرة: مدينة تبعد ثلاثة أميال عن مدينة الكوفة في مدينة النجف في العراق، وكانت مسكن لمولوك العرب في العصر الجاهلي. ينظر: الكامل في التاريخ لأبن الأثير، ٣٨٣/١، معجم البلدان، ٣٢٨/٢.

(٦) البرَّاض: هو الْبَرَّاضَ بْنَ قَيْسِ بْنِ رَافِعٍ الْكِنَانِيَّ ثُمَّ الضَّمْرِيَّ، من قبيلة كنانة، رجلًا شديد الفتك والإجرام، حتى بلغ من شرِّه أنَّ قومه تبرؤوا منه وخلعوه، وقد اشتهر بحدَّة بطشه، حتى صار يُضرب به المثل في الفتك. ينظر: الكامل في التاريخ لأبن الأثير، ٥٢٨/١.

قومه، فردَّ عليه النُّعمان قائلًا: إنَّما أريد من يُجيزها على كنانة وقيس، فبادره عروة الرَّحال قائلًا: (أنا أُجيزها لك)، فوافقه النَّعمان، وأمره أن يسير بها، لكنَّ البرَّاض اعترض على عروة، وقال له: (أتجيزها على بني كنانة؟)، فأجابه: (نعم، وعلى أهل الشيح والقيصوم) أي على جميع النَّاس كلهم من في تلك المناطق، ثم راح يسخر منه ويعيّره، بعد ذلك، انطلق عروة الرَّحال في طريقه، لكن البَرَّاض تبعه مترصِّدًا له، مترقبًا غفلته، فلمَّا كان عروة بين ظهري قومه(١).

أدركه البَرَّاض، فناشده عُروة وقال: كانت منّي زلَّة، وكانت الفعلة منّي ضلة، فلم يعير اهتمامًا له، فضربه بالسيف فقتله(٢).

عندما وصل الخبر إلى كنانة، وكانوا في عكاظ مع هوازن، قالوا: (إن البَرَّاض قد قتل عروة الرَّحال في الشهر الحرام)، فاجتمعوا سرًا وانطلقوا دون أن تشعر بهم هوازن. لكن سرعان ما بلغ الخبر إلى هوازن، فتعقّبوا كنانة حتى أدركوهم قُبيل دخولهم الحرم. وهنا، توقفت هوازن عن القتال احترامًا للحرم، لكن المعركة استؤنفت في اليوم التالي، وكان القوم متساندين، بحيث تولى رئاسة كل قبيل من قريش وكنانة أحد رجالهم، وكذلك كان لكل قبيلة من قيس رئيس من بينهم (٣).

وفي اليوم الثالث، الذي كان أشدَّ أيَّام القتال، وكان الظَّفرُ في بداية النَّهار لقيس على كنانة، ولكن مع انتصاف النَّهار، كان الظَّفرُ لكنانة على قيس(٤).

بعد هذه المعركة، اتفق الفريقان على أن يلتقوا في العام التالي بسوق عكاظ. وعندما حلّ العام التالي، جاء الفريقان وفق الموعد، وتداعى بعض قريش إلى الصلح ألا ننتهي عن القتال؟، فخاطبتهم هوازن قائلة: (ما الذي تدعون إليه؟)، قالوا: (الصلح! الصلح!)، وعرضوا عليهم أن تدفع قريش وكنانة دية قتلى هوازن، مقابل أن تعفو هوازن عن دمائهم، وكانت قريش وكنانة قد غلبوا هوازن وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، لكنهم انهزموا في بعض المعارك. فوافقوا على الصلح، وقدموا رهائن لضمان تنفيذ الاتفاق، حتى يتم دفع الدية بالكامل(٥).

(١) ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٥٢٨/١ - ٥٢٩.
(٢) ينظر: السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٨٥/١.
(٣) ينظر: السيرة النَّبوية لأبن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدِّمشقي(ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (دار المعرفة للطباعة والنَّشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ١٣٩٥هـ ١٩٧٦م) ٢٥٦/١.
(٤) ينظر: السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٨٧/١.
(٥) ينظر: السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ١٨٦/١ ١٨٧.

لم يكن القتال قد وقع في الشهر الحرام، لأنَّ العرب كانوا يمتنعون عن القتال فيه حتى لو لم يدخلوا الحرم بعد؛ والدليل على ذلك أنهم توقفوا عند اقترابهم من الحرم، ثم استأنفوا القتال في اليوم التالي، مما يؤكد أن المعركة لم تكن في الشهر الحرام؛ وقد استمَّر القتال أربعة أيام، وشهد النَّبيّ ﷺ بعض هذه المعارك، حيث خرج معه أعمامه، وكان يشارك أحيانًا في القتال، فإذا كان حاضرًا غلبت كنانة، وإن غاب عنها هُزمت(١).

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «كُنْتُ أُنَبِّلُ عَلَى أَعْمَامِي أَيْ أَرُدُّ عَلَيْهِمُ نَبْلَ عدوهم إدا رَمَوْهُمْ بِهَا»(٢).

٢. سبب التسمية:

سُمِّي يوم الفجَّار بهذا الاسم، لما ارتكبه الحيَّان قبيلتي كنانة وقيس عيلان، من انتهاك للمحرمات فيما بينهم(٣).

٣. خاتمة تحليليَّة:

من خلال مشاركته ﷺ في إدارة أزمة حرب الفجَّار التي وقعت بين قريش وكنانة من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى، وبتحليل شواهد الموضوع، يمكن القول: بأنَّ النَّبي ﷺ قد اكتسب من خلال هذه الحرب عدة مهارات وخبرات مهمة من أبرزها:

أ. الاطلاع على أحوال العرب في الحروب، بحيث أعطته هذه التَّجربة معرفة أساليب القتال، والتحالفات بين القبائل، وتأثير الحروب على المجتمع الجاهلي.

ب. التزامه ﷺ بالأخلاق حتى في الحرب، بحيث لم يشارك مباشرة في القتال، بل اقتصر دوره على جمع السهام وإعادتها لأعمامه، مما يعكس تجنبه لسفك الدِّماء، رغم اشتراكه في دعم قومه.

ج. عززت هذه المشاركة تحمُّله للمسؤولية بشكل تدريجي، فتعد جزءًا من مراحل تعلمه وتدريبه ﷺ على القيادة الحقيقية، وهو ما ظهر لاحقًا لإدارته للمعارك بعد البعثة.

د. مكانته ﷺ بين قومه وثقتهم به، يدل ذلك على أنَّه كان محل ثقة بين بني هاشم رغم أنَّه كان في مقتبل عمره ﷺ ، حيث أوكلت إليه إمدادهم بالأسلحة.

(١) ينظر: المصدر نفسه، ١٨٧/١.
(٢) السّيرة النَّبويَّة لابن كثير، ٢٥٦/١.
(٣) ينظر: السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٨٦/١.

هـ. رغم أنَّه ﷺ لم يكن قائدًا حينها، إلاَّ أنَّ وجوده في هذه الحرب أتاح له فرصة ملاحظة أساليب اتخاذ القرارات أثناء الأزمات.

ثانيًا: مشاركته ﷺ في حلف الفضول.

١. سبب تسميته:

إنَّ سبب تسميته بهذا الاسم، حيث إنَّ قبائل من قريش تداعت إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جُدعان(١)، وذلك لشرفه بين قومه وسنِّهِ الكبير، فكان الحلف عنده، ومن هذه القبائل هي: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة ابن كلاب، وتيم بن مره، واتفق المجتمعون على عقد ميثاق يلتزمون به، وتعاهدوا على نصرة كل مظلوم في مكة، سواء كان من أهلها أو من الوافدين إليها من مختلف القبائل، وألزموا أنفسهم بالوقوف إلى جانبه حتى تُعاد إليه حقوقه كاملة، دون تهاون أو تفريط، وأن يكونوا صفًّا واحدًا ضد كل من يمارس الظُّلم والجور. ولعظمة هذا الميثاق وما تضمَّنه من مبادئ العدل والنَّجدة، أطلقت عليه قريش اسم «حلف الفضول»، اعتزازًا بمقاصده النبيلة وأهدافه السامية (٢).

«وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب»(٣). وهذا الحلف كان شبيهًا بحلف سابق كان في مكة، أيَّام حكم « جُرْهمٍ « (٤)، والذي كان يقوم على العدل والإنصاف،

(١) عبد الله بن جدعان هُوَ: عبد الله بن جدعَان بن عَمْرو بن كَعْب بن سعد بن تيم بن مُرَّة بن كعب بن لؤي، ويكنى أَبَا زُهَيْر، وَهُوَ ابْن عَم أم المؤمنين عَائِشَة رضى الله عَنْهَا، وَلذَلِك قَالَت للنَّبيّ ﷺ : إِن ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». وَكَانَ ابْن جدعَان فِي بَدْء أمره صُعلوكًا فقيرًا ترب الْيَدَيْنِ، وَكَانَ مَعَ ذَلِك فاتكًا لَا يزَال يجنى الْجِنَايَات، فيعقل عَنهُ أَبوهُ وَقَومه، حَتَّى أبغضته عشيرته ونفاه أَبوهُ، وَحلف أَلاَّ يؤويه أبدًا لما أثقله بِهِ من الْغرم وَحمله من الدِّيات، ثمَّ كَانَ أَن أثرى ابْن جدعَان بعثوره على ثعبان من ذهب، وَعَيناهُ ياقوتتان، فأوسع فِي الْكَرم حَتَّى كَانَ يضْرب بِعظم جفنته الْمثل، ومدحوه لكرمه. ينظر: السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٣٤/١، صحيح مسلم ١٩٦/١، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمله، رقم الحديث (٢١٤).

(٢) ينظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٣٤/١.

(٣) الروض الأنف في شرح السّيرة النَّبويَّة لأبن هشام، ٤٦/٢.

(٤) جرهم هو: جرهم بن يقطن بن عابر. وعند عابر تجتمع مضر ويمن، لأنَّ اليمن كلَّها بنو قحطان بن عابر، ومضر كلَّها بنو فالغ بن عابر، وهم من القبائل القديمة. ينظر: العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربِّه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربِّه الأندلسي(ت ٣٢٨هـ)، ط١ (دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤٠٤هـ)٣٥١/٣.

ونصرة الضعيف على القويّ [١].

٢. حديث النَّبيّ ﷺ عن حلف الفضول:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ[٢] وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»[٣].

وجه الدلالة: لاشك إنَّ الإسلام يقر بالمبادئ العادلة بشكل مطلق وإن كانت من عادات الجاهليَّة، وأنَّ النَّبيّ ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة لتعزيز مبدأ العدل ونصرة المظلوم ومساعدة المستغيث، ويؤكد قيمة العدل والتَّعاون على البر من خلال مدحه ﷺ للحلف، وهذا دليل على أنَّ العدل مبدأ ثابت لا يتغير بمرور الزمن، فالإسلام يدعم القيم النَّبيلة القائمة على العدل، ولو كانت في بيئة غير إسلاميَّة، ما دام الهدف منها تحقيق الخير والإنصاف [٤].

فالظلم مرفوض بأي شكل من الأشكال أو صورة من الصور، وقوله ﷺ «وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ» فإنَّه طالما يردع الظالم عن ظلمه[٥].

فالإسلام إنَّما جاء لإقامة العدل وإظهار الحق ونصرة المظلوم[٦].

(١) ينظر: السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أَبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣(دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م) ٥٩٦/٦.

(٢) ويقصد ب «حُمْرُ النَّعَمِ» الإبل الحمراء، وهي أثمن وأغلى وأنفس وأعزّ أنواع الإبل عند العرب، حيث كانوا يضربون بها المثل في عِظَمِ القيمة والنَّفاسة. ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت١٠١٤هـ)، ط١(دار الفكر بيروت - لبنان - ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م) ٣٩٣٤/٩.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي، ٥٩٦/٦، جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء غير الموجف عليه، باب إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية، رقم الحديث(١٣٠٨٠). والحديث صحيح: ينظر: البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت ٨٠٤هـ)، تحقيق: مصطفى أبو الغيط - عبد الله بن سليمان - ياسر بن كمال، ط١(دار الهجرة للنشر والتوزيع – الرياض – السعودية - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م) ٣٢٥/٧.

(٤) ينظر: السّيرة النَّبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري، ط٦(مكتبة العلوم والحِكم - المدينة المنورة - المملكة العربيَّة السعوديَّة - ١٤١٥هـ ١٩٩٤م) ١١٢/١.

(٥) ينظر: فقه السّيرة النَّبوية، منير محمد الغضبان (ت١٤٣٥هـ)، ط٢(جامعة أم القرى - مكة المكرمة - المملكة العربيَّة السعوديَّة - ١٤١٣هـ ١٩٩٢م) ص ١١٠.

(٦) ينظر: الروض الأنف في شرح السيرة النَّبوية لأبن هشام، ٥٤/٢.

وهنا يتضح جليًّا أنَّ حلف الفضول لم يكن مجرد اتفاق أخلاقي فحسب، بل كان حلًا لأزمة العدالة والمساواة التي كانت تشهدها مكة وأُنموذجًا لما يمكن أن يحققه التَّعاون الجماعي عند غياب المركزية في اتخاذ القرار، ولم يكن رسول الله ﷺ بمعزل عن هذه الأزمة، بل شارك في الحلف مما يعكس دوره الفاعل في معالجة الأوضاع المجتمعية حتى قبل البعثة، وتبرز مشاركته وعيه القيادي المبكر، وإدراكه لأهمية الحلول الجماعية في إدارة الأزمات، وهو منهج استمرَّ في سياسته بعد النُّبوة ﷺ .

المطلب الثاني: عمله ﷺ وتحسين وضعه المادي والاقتصادي

أولًا: عمله ﷺ في رعي الغنم.

بعد أن كفله عمُّه أبو طالب وكان يحبه ويعطف عليه ويرفق به [١]، كان أبو طالب قليل المال، لكنَّه كان يحب النَّبيّ ﷺ حبًّا عظيمًا يفوق حبه لأبنائه، فلم يكن ينام إلا إلى جواره، وإذا خرج، خرج معه، وكان يخصه بالطعام دون بقية أولاده، وإذا أكل أبناء أبي طالب مجتمعين أو متفرقين، لم يشبعوا، أما إذا أكل معهم رسول الله ﷺ ، شبعوا جميعًا. فكان أبو طالب إذا أراد أن يطعم أبناءه، قال لهم: «انتظروا حتى يأتي ولدي»، فإذا جاء رسول الله ﷺ وأكل معهم، كفاهم الطعام وزاد. وإن غاب عنهم، لم يشبعوا، فكان أبو طالب يقول له: «إنك لمبارك»، وكان عمّه أبو طالب يعمل بالتجارة، ويرحل مع قريش وقوافلها في رحلاتهم إلى الشَّام واليمن، ويظهر أنَّه كان قليل الحظ في الربح الكثير، ومع ذلك كان كثير العيال [٢].

لم يكن في حياة رسول الله ﷺ قبل بعثته ما يدل على أيّ توجّه معين، سوى أنَّه كان منجذبًا إلى نمط من الحياة يملأها الإحساس بعظمة الكون، وعظمة خالقه Y والشُّعور بسلطان قدرته المطلقة التي تحيط بالوجود كله[٣].

(١) ينظر: جوامع السّيرة النَّبويَّة، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت٤٥٦هـ)، (دار الكتب العلمية - بيروت لبنان) ص ٦.

(٢) ينظر: محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة - بحث وتحقيق، محمد الصادق إبراهيم عرجون، ط٢ (دار القلم - دمشق - سوريا - ١٤١٥هـ ١٩٩٥م)١/١٦٥ - ١٦٦.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ١/١٧٦.

ومن هنا أيضًا، كانت عزلته عن حياة قومه الصَّاخبة التي تخلو من المعنى العميق، وكان ميله إلى الصَّحراء الواسعة غير المتناهية، التي تشبه في امتدادها بالفكرة التي تملأ نفسه ﷺ ، ومن هنا، كان يميل إلى الهدوء تحت ظِلال الأشجار أو فوق قمم الجبال، لكن محمدًا ﷺ كان شابًا يستقبل مرحلة الرجولة، فلا بد له من العمل ليعيش حياة شريفة كريمة، لاسيَّما مع ما يحمله عمُّه من مسؤوليات ثقيلة تجاه عياله، ومع ما غمره به من حب ورعاية، لذا، كان لا بد أن يعتمد على نفسه ويكدح ليكسب رزقه، فقد كان شابًا ذا خلق كريم، قوي البنية، مستقيم السيرة، محبوبًا بين قومه، يودونه ويرغبون في العمل معه، لكن أي عمل يليق به ويتناسب مع طبيعته الهادئة(١)؟

لقد اعتاد ﷺ ، منذ طفولته في قبيلة بني سعد، أَن يخرج مع إِخوته من الرّضاع لرعي الغنم في البادية، فإنَّه ﷺ لم يرث من والده شيئًا (٢).

فكان هذا العمل سهلًا قريبًا إلى نفسه، فهو ينسجم مع هدوئه الدَّاخلي، ويتيح له الاستمتاع بجمال الصَّحراء، والتأَمل في مظاهر عظمة الله (I) في خلقه، والانفراد بمناجاة الخالق تحت ضوء القمر ونسيم الليل العليل، كما أنَّ رعي الغنم كان لونًا من التَّربية النَّفسية، حيث يعلّم الصَّبر والحلم والرفق، ويُكسب الرَّحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى، ويضبط قوة القوي حتى لا تطغى، فيسير الجميع بيسر واتزان، ويمنح الرعاة خبرة في تجنب مواطن الهلاك، وارتياد أماكن الخصب والري، ومعرفة كيفية قيادة هذا الحيوان الضَّعيف. وهذا اللون من الحياة كان قدرًا إلهيًّا اختاره الله (U) لمن اصطفاهم لحمل رسالته، ليكونوا قادرين على سياسة البشر، وتعليمهم مبادئ الحياة الصَّالحة، وأدب العبودية، ومعرفة الخالق ودلائل قدرته. ولذلك، نجد أن كثيرًا من الأنبياء عليهم السلام عملوا في شبابهم برعي الغنم، ومن بينهم نبينا محمد ﷺ ، إعدادًا لهم لتحمُّل المسؤوليَّة العظمى في قيادة الأُمم(٣).

وكذلك ليكونوا رعاة الخلق، ولتكون أممهم رعايا لهم، قائمين على إدارة شؤنهم، ساعين في مصالحهم، وتحفظ حقوقهم، وتحقق لهم أسباب العيش الكريم (٤).

(١) ينظر: محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة - بحث وتحقيق، ١٧٧/١.
(٢) ينظر: الروض الأَنف في شرح السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١١٦/٢.
(٣) ينظر: محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة - بحث وتحقيق، ١٧٧/١ - ١٧٨.
(٤) ينظر: فقه السيرة النَّبوية، للغضبان، ص ٩٠.

قال رسول الله ﷺ : «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ (١) لِأَهْلِ مَكَّةَ » (٢).

وهنا يتضح أنَّ رعيه ﷺ للغنم، لم يكن مجرد رزق يكتسبه، أو مهنة عابرة يبتغيها، وإنَّما كانت تجربة شكلت جانباً مهمًّا من شخصيته ﷺ ، إذ غرس فيه الصَّبر على المشقة والتحديات، وتجاوز الأزمات، فعلَّمته هذه التَّجربة كيف يواجه الصُّعوبات بثبات، ويولد عنده الشُّعور بالمسؤولية بمساعدة الآخرين، والرَّحمة في التعامل في المجالات كافة وحتى مع الحيوانات، والشجاعة التي تتطلب في المواقف الحرجة، فكانت مرحلة الرعي إعدادًا مبكرًا لشخصية قيادية تحمل هم الأمة بصبر ورحمة وأمل وتفاؤل.

ثانيًا: عمله في التِّجارة.

لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، خرج مع عِير قومه ليشتغل بالتِّجارة، ولعلَّ هذه الرِّحلة كانت تمهيدًا لما جرى بعد ذلك من عمله في المال الذي كانت تملكه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، إذ كانت تُعرف باستئجار الرِّجال للتِّجارة في مالها؛ وقد كان عمّه أَبو طالب هو من أَشار عليه بذلك، لما أَصابهم من القحط وضيق الحال، فأَخبره عن حالها، ورغِب أَن يكون هو من يتولّى تجارتها، لما اشتُهر به من الصِّدق، والأَمانة، والعفّة، وسموّ الأَخلاق(٣).

وكانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرِّجال في مالها وتضاربهم(٤)، إيَّاه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تُجَّارًا، فلمَّا بلغها عن رسول الله ﷺ ممَّا عرف به من صدق حديثه، وعظم أمانته وعفَّته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشَّام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التَّجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشَّام (٥).

(١) قراريط: جمع قيراط والْقِيرَاطُ جُزْءًا مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ جُزْءًا مِنَ الدِّرْهَمِ أَو جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الدِّينَارِ وَهُوَ نِصْفُ عُشْرِهِ فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ. ينظر: لسان العرب، ٣٧٥/٧. مادة(قرط).

(٢) صحيح البخاري٨٨/٣، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم الحديث (٢٢٦٢).

(٣) ينظر: السّيرة الحلبيَّة= إنسان العيون في سيرة الأَمين المأمون، ١٩٣/١.

(٤) تضاربهم: أي تقارضهم، والمضاربة: المقارضة، أي: أنَّ بعضهم يعطي المال لآخر ليتاجر به مقابل نسبة من الأرباح. ينظر: لسان العرب، ٥٤٤/١. مادة(ضرب).

(٥) ينظر: السّيرة النَّبويَّة لابن هشام، ١٨٨/١.

ونزل النَّبيّ ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرُّهبان فاطَّلع الرَّاهب إلى ميسرة فقال له من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاَّ نبيّ؛ ثمَّ باع النَّبيّ ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلًا إلى مكة(١).

المطلب الثالث: مشاركته ﷺ في بناء الكعبة المشرَّفة وإدارته في حل أزمة وضع الحجر الأسود

أولًا: بناء الكعبة شرفها الله ﷻ.

عندما بلغ النَّبيّ محمد ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره اجتمعت قريش لإعادة بناء الكعبة، بعدما تعرَّضت لسيول جارفة، تسببت في تصدُّعها، وكانت الكعبة المشَّرفة لا تزال على هيئتها التي بناها النَّبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام، مبنيَّة بالحجارة دون سقف، وبارتفاع فوق قامة الإنسان، فأرادت قريش هدمها وإعادة بنائها ورفع جدرانها وتسقيفها، لكنهم هابوا هدمها وخافوا من عاقبة ذلك، وكانت رضمًا(٢)، فوق القامة من غير مِلاَطٍ(٣)، قال الوليد بن المغيرة(٤): أنا أول من يبدأ بهدمها، ثم أخذ معوله وتقدم نحو الكعبة، وهو يقول: «(اللهم إننا لا نريد إلا الخير)، ثم شرع في الهدم من جهة الركنين، فتربص النَّاس تلك الليلة، وقالوا: «ننتظر، فإن أصيب الوليد، لم نهدم شيئًا وأعدناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء، فذلك دليل على رضا الله ﷻ عن فعلنا، فنستمرّ في الهدم»(٥).

(١) ينظر: الروض الأنف في شرح السيرة النَّبوية لابن هشام، ١٥٢/٢.

(٢) الرَّضم: الحجارة المنضودة بعضها فوق بعض من غير طين. ينظر: الروض الأنف في شرح السيرة النَّبوية، ١٦٩/٢.

(٣) الملاط: الطين الذي يستخدم في البناء حيث يوضع بين ساقي البناء «أي: بين الحجارة لربطها ببعضها» وكذلك يستخدم في طلاء الجدران وتنعيم سطحها. ينظر: المصدر نفسه.

(٤) الوليد بن المغيرة: هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد كبار رؤساء قريش في الجاهلية، وكان من أشد المعارضين للدعوة الإسلاميَّة، رغم أنَّه عند سماعه القرآن الكريم أعجب ببلاغته، لكنَّه في النِّهاية رفض الإيمان وأدعى أن القرآن الكريم «سحر يؤثر» فنزلت فيه آيات من سورة المدثر. ينظر: تفسير القرآن الكريم، ٢٧٨/٨.

(٥) ينظر: السيرة النَّبوية لابن هشام، ١٩٥/١، الروض الأنف في شرح السيرة النَّبوية، ١٦٩/٢.

وفي الصباح، جاء الوليد ليكمل عمله، فواصل الهدم، فتبعه النَّاس حتى وصلوا إلى الأساس الذي وضعه النَّبيّ إبراهيم عليه السلام، وعندما تحرَّك الحجر، ارتجَّت مكة بأكملها، فتوقفوا عند هذا الحد، ولم يتجاوزوا أساس النَّبيّ إبراهيم عليه السلام وأجمعت قريش أن لا يدخلوا في بنائها من كسبهم إلاَّ مالًا حلالًا طيّبًا، لا فيه مال من البغيّ أي: الزنا، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من النّاس(١).

إنَّ قبائل قريش قد جمعت الحجارة لبنائها، فقامت كل قبيلة تجمع الحجارة على حدة، ثم بعد ذلك قاموا ببنائها حتى بلغ البنيان موضع الركن(٢) (٣).

وقد اشترك سادة قريش في نقل الحجارة ورفعها، وقد قسَّموا العمل وخصّوا كل قبيلة بجزء من أجزاء الكعبة، وشارك رسول الله ﷺ وعمَّه العباس في بنائها، وكانا ينقلان الحجارة، وفي الحديث: لَمَّا بُنِيَتِ الكَعْبَةُ، ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ (٤) مِنَ الحِجَارَةِ، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَطَمَحَتْ (٥)عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: «إِزَارِي إِزَارِي(٦) فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ»(٧).

ثانيًا: النَّبيّ ﷺ حكمًا بين القبائل في أزمة الحجر الأسود.

١. سبب الأزمة:

بعد أن تعاونت قبائل قريش بجمع الحجارة لكي يتم بناء الكعبة المشرَّفة، ولمَّا بلغ البنيان موضع الركن، اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود، فكل قبيلة تريد أن ترفعه وتضعه في موضعه، دون الرُّجوع إلى القبائل الأخرى، حتى وصل الأمر إلى التحالفات وإعداد العدَّة للقتال حتى الموت، فمكثت قبائل قريش على هذه الحالة أربع أو خمس ليال، حتى اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا(٨).

(١) ينظر: السيرة النَّبوية لابن هشام، ١٩٥/١. ينظر: تفسير القرآن الكريم لابن كثير، ٣١١/١.
(٢) يريد بالركن: « الحجر الأسود، وسمّيّ ركنًا لأنَّه مبني في الركن». السيرة النَّبوية لابن هشام، ١٩٦/١.
(٣) ينظر: المصدر نفسه.
(٤) يقيك: يحفظك. ينظر: لسان العرب، ٤٠٢/١٥. مادة(وقي).
(٥) طمحت: ارتفعت. ينظر: المصدر نفسه، ٥٣٤/٢. مادة(طمح).
(٦) إزاري إزاري: ثوب يغطي النِّصف الأسفل من البدن، من المحزم حتى السَّاق، ينظر: تكملة المعاجم العربيَّة، ١٢٠/١. مادة (أزر).
(٧) صحيح البخاري ٤١/٥، كتاب مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة، رقم الحديث (٣٨٢٩).
(٨) ينظر: السيرة النَّبوية لابن هشام، ١٩٦/١ - ١٩٧.

٢. الاتفاق أثناء الأزمة:

لمَّا بلغ بهم المقام أن يجهزوا أنفسهم للقتال لاختلافهم على من يضع الحجر الأسود في مكانه، ومن خلال النِّزاع المحتدم اتفقوا على أن يجعلوا حكمًا يقضي بالخلاف الحاصل بينهم، وكان الاتفاق هو أول من يدخل عليهم من باب هذا المسجد يقضي بينهم(١).

٣. دوره ﷺ في معالجة الأزمة:

بعد أن اتفقت قبائل قريش على أنَّ أول من يدخل من باب المسجد يكون حكمًا بينهم، فكان أول من دخل هو رسول الله ﷺ ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد ﷺ ، فلمّا انتهى إليهم وأخبروه بما حصل بينهم، قال النَّبيّ ﷺ : هلمَّ إليَّ ثوبا، فأتي به فأخذ الركن، أي: الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه رسول الله ﷺ بيده ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي النَّبيّ ﷺ قبل أن ينزل الوحي بالأمين(٢).

وكيف لا، ورسول الله ﷺ مشمول بعناية الله تعالى وحفظه، محاط بصونه عن أدران الجاهلية، إعدادًا لرسالته وتشريفًا لمكانته، حتى أصبح خير قومه مروءة، وأحسنهم خُلقًا، وأكرمهم نسبًا، وأفضلهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأشدَّهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش وسوء الأخلاق التي تلوّث الرِّجال، مُتحلِّيًا بالطّهر والتَّكريم، حتى لم يكن يُعرف بين قومه إلا بلقب (الأمين)، لما اجتمع فيه من الصّفات الحميدة والمزايا الفاضلة التي وهبها الله ﷻ إياها(٣).

وهنا يتضح من خلال هذه الأزمة بُعد النَّظر للنَّبيّ ﷺ وحكمته الفريدة في إدارة الأزمات، إذ استطاع ﷺ بحل بسيط وعادل ومنصف، والذي من خلاله أخمد فتيل النِّزاع، محققًا بذلك التوافق بين الأطراف المتنازعة، فلم يلجأ إلى القوة أو التَّفرد بالرأي، بل جاء بحل عبقري، جعل الجميع شركاء فيه، دون إراقة قطرة دم واحدة، ممَّا عزَّز مكانته بينهم، وزاد من احترامهم له ﷺ ويظهر في هذا الموقف منهجه ﷺ القائم على تحقيق العدل، وإشراك الجميع في الحل، ومنع التَّصعيد، وهي مبادئ أساسية في إدارة الأزمات بحكمة وحنكة.

(١) ينظر: الروض الأنف في شرح السيرة النَّبوية لابن هشام، ١٨٢/٢.
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣١٢/١.
(٣) ينظر: البداية والنِّهاية لابن كثير، ٤٤٤/٣.